

## التأثير في الآداب الأخرى

### في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

من أقوى الدلائل على حيوية أدب أمة وصدق ترجمته عن الشاعر الانسانية احتفاء الأمم الأخرى به ، وعنايتها بدرسه ، وتأثيرها بنتاجه ، واصطناعها وسائله ، واشتهار خوله بينها ؛ فان الأدب إذا كان حياً صادق التعبير عن النفس الانسانية ، عميق النظرة في مشاهد الكون ، تخطى حدود أمته واختار حوائل اللغة والتقاليد والجنسية والبيئة ؛ تخطى ذلك إلى ساحة الانسانية التي تمحي عندها فوارق الزمان والمكان ، ويلتقي لديها أبناء الأمم المختلفة والأزمان المتباعدة ، وتعجد المبقرية الفنية حينما نبات حيوية الأدب وصدق شرط أساسى لديوعه وتأثر الآداب الأخرى به . وقد تجتمع إلى قوة الأدب الفنية الخاصة قوة أمجابه الحربية وسلطانهم السيامى ، فيكون ذلك عاملاً كبيراً مؤدياً إلى انتشار الأدب ؛ على أنه عامل إضافى لا يضير انعدامه . فالأدب واللغة هنا على طرفى نقيض : فلهذا الأمة لا تذبح في الأمم الأخرى إلا تبعاً لارتفاع سلطانها السيامى ، مهما كان رقى اللغة ذاتها وصلاحتها وتفوقها على اللغات الأخرى ، أو تخلفها عنها ؛ فلتغات الرومان والمرب ، ثم الفرنسيين والانجليز ، لم تذبح وتتخذ صيغة ظلية إلا مصاحبة لامتداد نفوذ تلك الأمم ؛ أما الأدب فلا يذبح إلا لرقبه وصلاحيته وتفوقه في بعض النواحي ، سواء أساعده النفوذ السياسى أم أعوزه ؛ ذلك لأن اللغة وسيلة ضرورية من وسائل التعامل ، فلا بد من اللسان باغة الأمة ذات الشأن العظيم في الحياة الدولية والاقتصادية ؛ أما الأدب فهو متمتع وجدانية كالية ، تقبل النفس منه ما وافق طبعها وترفض ما لا تستسيغه ، ولو كان عمت إلى أوسع الأمم سلطاناً وأضخمها جيشاً والأدب الاغريقي نسيج وحده في هذا الباب ، وهو مصداق

كل ما تقدم ذكره ، ولم يؤثر أدب تأثيره في آداب الأمم ، ولا نال مثل ما نال من احتفالها : فهو أدب حى راق صادق ، ذاع في عهد سطوة أمجابه وفي عهد اضمحلالهم ، بل أثر في غالبهم في ميدان الحرب والسياسة - الرومان - أبعد تأثير ؛ ثم عاد فبمث من مكنه فأثر في نشأة الآداب الأوربية الحديثة ، بل على يديه درجت ، وفي حجره شبت ؛ وما زالت دراسته أحد فروع الثقافة العالمية في الجامعات الأوربية ؛ ومن أجل دراسته والاستفادة من كنوزه تدرس اللغة الاغريقية على بعد ما بينها وبين اللغات الحديثة . أما اللغة ذاتها فتقلص ظلها منذ تقاص ظل السيادة اليونانية التي أظلت حوض البحر الأبيض الشرقى على عهد أثينا والاسكندر والبطالسة ، ودرست اللغة وبطل التخاطب بها حتى في بلاد اليونان ذاتها

وتراوح درجة تأثير أدب أمة في آداب غيرها تبعاً لحالة المؤثر والتأثر : فيكون الأثر شاملاً عامراً إذا كانت الهوة بينهما بمسدة ، بأن كان الأول عظيم الرقى والآخر بدائياً ساذجاً ، كما كان تأثير الأدب اليونانى في الأدب الرومانى والآداب الأوربية الحديثة ، وكما كانت منزلة الأدب الفرنسى من الأدب الألمانى في أوائل القرن الثامن عشر ؛ وقد يكون أثر أدب في غيره قاصراً على ناحية يتفوق فيها أو يمتاز بها ، كما كان تأثير قصة المفامرات الاسبانية في الأدب الانجليزي ، أو تأثير القصة الروسية في الآداب الأوربية المصرية ؛ وقد تحتفى أمة بدراسة أدب أمة أخرى إعجاباً به وتقديراً له ، دون أن يتأثر به أديها متأثراً كبيراً ؛ وأغلب ما يكون ذلك إذا تعامل الأدبان في الرقى ، كما هى الحال بين كثير من الآداب الأوربية الحديثة التي قطعت مراحل مماثلة ، ووصلت إلى درجات من الرقى متقاربة ؛ وقد يتناكر أدبان ويتنابدان فلا يتأثر أحدهما بالآخر ، لشدة ما بينهما من تفاوت ، أو لاعتداد كل منهما بنفسه ، كما كان من ازورار الأدب العربى عن الأدب اليونانى ؛ وقد يُدرس الأدب في المعاهد وعلى أيدي العلماء والأدباء لمجرد البحث العلمى والتأريخ ، دون أن يكون له كبير أثر في آداب الأمم ، أو يكون للجمهور المتأدين بصراً به ، كما يدرس الأدب العربى في بعض الجامعات الأوربية اليوم ، وكلا الأدبين العربى والانجليزي أثر في آداب الأمم الأجنبية ،

من التقدم ، بينما أدب الفرس بدأ لم يتمد بعدُ طور الطفولة ، ولم يستقل تماماً عن الدين ، لأنه — كأدب قدماء المصريين — ترعرع تحت ملكية شديدة الجبروت والأناية ، وكنهوتية شديدة الغيرة والأثرة ، فلم يكن يعدو الأفاصيص الساذجة والواعظ ونوادير الملوك والآلهة ؛ أما الأدب العربي فكان قد ترعرع في حرية البادية

فلما اتصل الفرس بالأدب العربي وأعجبوا به ، لم ينقلوا ماراهاهم منه إلى أدبهم بل انتقلوا هم إليه ، فنتروا ونظموا في لغة الدولة والدين والقرآن ، وكان منهم جملة من تحول الأدب العربي ، على حين كان أدبهم هم خالياً من الفحول على الإطلاق ؛ ثم نشأت طبقة منهم كانت تؤلف باللغتين وتسام في الأدبين ، وبذلك بدأ الأدب الفارسي في الظهور وكان الشعر أسبق من النثر ؛ فلما استقلت فارس واستعادت سيادتها القومية في ظل السامانيين والبيوميين ومن بعدهم ، نبغ فيهم رهط كبير من الشعراء والكتاب عكفوا على إحياء أدبهم وإثرائه ، متأثرين خُصلي الأدب العربي في المواضيع والأشكال الأدبية والأوزان الشعرية والألفاظ ، وأخذوا عن العربية ما كان قد داخلها إذ ذاك من محسنات وصنعة ؛ وبينما دخل الأدب العربي في طور ركوده افتتح الأدب الفارسي عصر رقي رائع طويل ، ضارع فيه الأدب العربي وفاقه في كثير من الأبواب ، كشمع الملاحم ووصف محاسن الطبيعة ، ونال بعض فحول كالفردوسي والخيام من الشهرة العالمية ما قهر عنه فحولة العربية

وكان للأدب العربي أثر كبير في آداب الأمم الغربية ؛ ولكن بينما تأثرت الآداب الشرقية بالأدب العربي الفصيح ، كان الأدب العربي المعاصر هو الذي أثر في الآداب الغربية ؛ فالأفاصيص الشعبية وضروب الأزجال التي نشأت في الأندلس كانت نواة الأدب الإسباني الحديث الذي تمثل في عهد النهضة الأوروبية في قصص سرفانتيس ، والذي أثر في الأدبين الفرنسي والانجليزي أثراً مذكوراً فيما بعد ؛ وتلك الأفاصيص والأزجال انتقلت من أسبانيا إلى جنوب فرنسا ، حيث نشأ شعراء التروبادور الذين وضعوا اللبنة الأولى في أساس الشعر الفرنسي الحديث . أضف إلى ذلك ما نقل من تلك الأشياء إلى الأدب

ويبلغ من الرقي والخطر ما جعله جديراً باحتوائها ، واشتهر فحوله وأعلامه بينها ، وسام بنصيب في الأدب الانساني العالمي . على أن الأدب العربي أعطى أكثر مما أخذ ، وأثر في آداب الأمم الأجنبية أكثر مما تأثر بها ، بينما الأدب الانجليزي قد أخذ أكثر مما أعطى إلى اليوم ، وغنم من كنوز الأمم الأخرى أكثر جداً مما أودع تلك الكنوز ؛ وهذه في الحقيقة ظاهرة مطردة في تاريخي الأمتين لاني أدبهما فقط . كانت الأمة العربية منذ ظهورها أمة إعطاء ، أعطت العالم ديناً وقوانين ولغة وأدبا ، ولم تأخذ إلا ما يتضائل أمام ذلك كله من حضارة الفرس السادية ، ونظريات اليونان الفلسفية . وكانت الأمة الانجليزية أمة أخذ ، أخذت عن غيرها دينها ، وألفت من لغاتهم لغتها ، واشتقت من آدابهم أساليب أدبها وأشكالها ، وأغنت جزيرتها بحجرات الأقطار ، ولم تهبط إلى العالم من مبتكراتها إلا نظامها النيابي . وعلى حين ازوت جزيرة العرب قابضة في عزلتها بعد أداء رسالتها ، أثرت إنجلترا بما قطفت من أطياب العالم السادية والأدبية التي اجتمعتها على مدى العصور اجتناءً يميز بصير خبير بما ينفع ، نابلد لما يذهب جُناء

أثر الأدب العربي في آداب كثير من الأمم الشرقية ، كالهندود والفرس والترك واليهود ؛ وما يزال ذلك التأثير مانلاً في الألفاظ والأساليب التي انتبستها منه تلك الآداب ؛ وقد أدى إلى اتصال تلك الآداب بالأدب العربي اتصال العرب بتلك الأمم بالحرب والتجارة ، وبسط العرب سيادتهم عليهم حيناً ، ونشرهم دينهم بينهم ، فكانت سيادة العرب سبب انتشار اللغة العربية التي ظلت تدرس في تلك الأقطار عصوراً طويلاً ، ولم تزل تدرس في بعضها ؛ وكان انتشار الدين الاسلامي عاملاً آخر أطول بقاء ؛ فلما انتقلت السيادة إلى الفرس فالترك ضعفت مكانة اللغة العربية ، بينما ظل التفوق والتأثير للأدب العربي حيناً طويلاً لرقبه وتأخر الآداب الأخرى

ولم يسمُ من تلك الآداب الشرقية إلى مضاهاة الأدب العربي إلا أدب الفرس . وقد كان بين هذين الأدبين وفولهما تمازج واتصال وتعارض وتبادل عديم النظير بين أدبين آخرين : بدأ ذلك بانتصار العرب الحربي والديني ، وكان أدبهم على جانب عظيم

إنما تنقل الأمم من آداب غيرها ما يمت إلى الانسانية في شتى بقاعها وعصورها بأوتق الأسباب ؛ أما المدح والذم والخلاف اللفظية التي إذا ترجمت تبخرت فلا تنفق في غير لغتها وعصرها ولقد كانت الآداب الغربية قبل عهد النهضة ناشئة تتلفت باحثة عن الأستاذ المرشد ، فلم تره في الأدب العربي الفصيح ، لأنه لم يكن أدب شعب ومجتمع وحياة متجددة ، بل اختار لنفسه أن يكون أدب بلاط ، ونديم عليية ، ورهين تقاليد لا تتغير ، واستبعد من حظيرته منادح كثيرة من منادح القول ، ومواضيع شتى من صميم الحياة والفن ؛ وإنما استفادت تلك الآداب بما وجدته في الأدب العربي العاجي من آثار الخيال الرائع ، والتصوير الصادق ، والتعبير المتعدد الأشكال عن الحياة الانسانية المتدفقة المتجددة ، فضلاً عما ينسجم منه من روايح الشرق وبذخه وكنوزه وغرائبه ، تلك التي ما زالت من قديم تسميها نفوس الغربيين وتثير أخيبتهم ، فأوسع الأوربيون ذلك الأدب العاجي دراسة وترجمة ومحاكاة ، ثم لم يلبثوا أن اهتموا إلى ضالهم المنشودة في الأدب اليوناني ، فمدوا من معينه ونهلوا

وقد قيل إن كوميدية دانتي الآلمية متأثرة برسالة الففران ، وقصة ربنسون كروزو أوحى بها قصة حي بن يقظان ، وذلك بعيد ؛ فلو أن الآداب الأوربية كانت تتأثر بالأدب العربي الفصيح لما اقتصر تأثرها على هذين التالين الشاردين — على كون قصة حي بن يقظان أثراً فلسفياً لا أدبياً — وليس بين الكوميدية الآلمية وبين رسالة الففران شبه سوى أن اللجنة والنار مشاهد وقائهما ، ولا بين ربنسون كروزو وحي بن يقظان تماثل إلا انزالهما في جزيرة ، وتوفيرها حاجتهما بأنفسهما ؛ وكلتا الفكرتين بديهيتان بلوح أنهما تطرآن على الفكر الانساني في شتى العصور والأصقاع . وهل شيء أكثر بدهاة وأقرب إلى الطيبة من أن دانتي المتعصب الديني في عصر التعصب الديني وفي وطن البابوية بلفتت الى العالم الآخر ويجرى فيه حوادث مهزلة ؟ أو أن ديفو المفاسر الأفاق في عصر المفاسرات البحرية ، وفي إنجلترا البلد البحري يتخذ بطلاً لقصته مخاطرًا بحاراً ؟

أما الأدب الإنجليزي فكان — كما تقدم — أقل من الأدب العربي تأثيراً في الآداب الأجنبية ، وأكثر منه تأثراً بها : تأثر

الاطالوي وأثر في كتابات بوكاشيو وبرارك ودانتي ، وما تسرب الى الأمم الأوربية في عهد الحروب الصليبية . هذا إلى قصص ألف ليلة وليلة التي انتقلت إلى أوروبا من عهد ببيد وترجمت الى لغاتها ، وكانت موضع إعجاب الأدباء واقتباسهم

وللأدب العربي أثر ثالث عظيم الخطر عديم النظر ، لم يتأت حتى للأدب اليوناني أن يأتي بمثله : ذلك هو حلوله محل غيره في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية ، حتى نسي أهل كل قطر من هاتيك ما كان له من أدب قبل ذلك ، وأصبح تاريخ الأدب في كل إقليم منها يبدأ بعهد الجاهلية في جزيرة العرب . والواقع أن الأدب العربي لم يسد تلك البقاع لجرد قوته وحيويته ، وإنما تمكن من الأنيان بتلك المعجزة بفضل ما صاحبه من ظروف وعوامل ، كقوة اللغة العربية ذاتها وكونها لغة الدين الجديد والدولة ، ثم السياسة الحكيمة التي سلكها العرب في حكم الأقطار : فقد تركوا لها حرية العبادة والميشة ، وأشعروها مع ذلك بالنقص والمحطاط منزلتها عن منزلة الفاتحين أصحاب الدين والدولة ؛ فتساعجهم الديني لم يستفز تلك الأمم الى مقاومة الدين الجديد ومعاندته ، كما قد كان يستفزها القهر والأرغام على اتباعه ؛ وشعورها الباطن بالنقص والمحطاط دفعها إلى التشبه بالقائمين بالأمر عليها والانهار في جلتهم ؛ ومن ثم انتشر الدين واللغة وحلا محل غيرها ، وانتشر بانتشارها الأدب العربي

فالأحوال كانت مهيأة في الشرق مساعدة لانتشار الأدب العربي : لتفوقه وتفوق لنته على ما كان هناك من آداب ولغات ، وانتشار دين قومه وسيادتهم ، ومشابهة الأمم الشرقية للعرب في الطباع إلى مدى ، وامتزاجها بهم في أطراف الامبراطورية العربية . أما في الغرب فلم يكن الأدب العربي الفصيح ليلاق مثل هذا النجاح ، بل هو لم يلاق نجاحاً ما ، ولم يصب إيجاباً قط ؛ وقد هرع اليه متأدبو الافرنج غير مرة يريدون الانتهاال من مورده ، وارتدوا خائبين قانطين ؛ وبينما وجدوا في الأدب الفارسي ما يترجمونه ويضمنون به ضمنهم بآثار آدابهم ، لم يجدوا في مدائح المنتهي لسيف الدولة وأهاجيبه لكافور ، وتفنن بديع الزمان في صوغ الأسجاع والنكات على لسان أبي الفتح ، ما يستحق عناء الدرس والترجمة ، أو يبحث على الإعجاب والمضن .

التدابير والتناكر سائدين بينهما عصوراً طويلاً ، والأولى في رفق مطرد ، والثانية في تدهور مستمر ؛ فلما تلاقنا ورفع من بينهما حجاب العزلة أثرت الأولى في الثانية ؛ وما تزال تؤثر تأثيراً هو أدنى إلى الثورة المطلقة أو الخلق من جديد

فالأدب الإنجليزي قد بلغ من الرق وصدق الرسالة واتساع الجوانب ما يبذبه الأدب العربي ، ونال من المسكنة بين آداب الأمم أسماها ، وحاز من أدباء تلك الأمم أعظم التقدير والحفاوة ، وهي مكانة ستظل له دائماً كما ظلت مكانة الأدب اليوناني بعد زوال دولته ، وهو خلق أن يؤثر في آداب الأمم التالية أثرأً بعيداً ؛ أما إذا ووزن بين تأثيره في الآداب الأخرى إلى اليوم وبين تأثير الأدب العربي في الآداب المعاصرة له ، فإن الأدب العربي يرجحهُ كثيراً . بيد أن الأدب العربي قد أدى رسالته في ذلك العدد ولم يعد صالحاً لأن يؤثر في آداب الأمم الأخرى حتى يتجدد ويتأثر هو ذاته بغيره من الآداب ، ويفتح في تاريخه فصلاً جديداً غير الفصل السالف

فخرى أبو السعود

## رسالة المنبر إلى الشرق العربي بقلم الأستاذ فليكس فارس

خطب وأبحاث وقصائد ترمي إلى تمييز الرابطة العربية وإقامة حضارتها وإصلاح أمرتها  
فصول عن فلسفة جبران خليل جبران وحياته  
ورد على كتاب الأستاذ نعيمة فيه

يقع الكتاب في ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير ، وهو مصدر بمقدمة من قلم الأستاذ الكبير عميد الرابطة العربية محمود بسيوني رئيس مجلس الشيوخ ، وبكلمات الأعلام المغفور له محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد الوهاب النجار ، ومصطفى صادق الرافعي

من عهد النهضة بالأدب اليوناني والروماني والفرنسي والابطالي والأسباني ثم الألماني ، وأخذ خير ما في تلك الآداب من الأشكال الأدبية والواضيع والأساليب ، وصاعها على النحو الملائم لطبائع أهلها وعبقرياتهم الخاصة ، ومثل كل ما أخذ وتقاء ، حتى جاء الأدب الإنجليزي مضاهياً لأحسن ما في تلك الآداب إن لم يفقهها جميعاً عمق ففكرة وشمول نظرة وحرارة شعور وصدق عاطفة وبساطة بيان ، ونبغ فيه من الأعلام أمثال شكسبير وملتون وبيرون وسكوت من كان لهم مكان رفيع في القارة ، وعنى بدراساتهم ، والاشادة بفضائلهم أقطاب الآداب الأوربية ، أمثال هوجو وتين وسنت بيف ، وحوكيت قصائد بيرون وقصص سكوت ، ومثلت روايات شكسبير في مسارج المواسم الأوربية ، وساهمت إنجلترا بنصيبها في النهضة الرومانسية التي كانت حركة أدبية دولية ساهمت فيها سائر الآداب الأوربية والأمريكينة

على أن كل ذلك لا يكاد يتخطى حدود التقدير والاعجاب بذلك الأدب ، ولم يمتد ذلك إلى إحداث ثورة شاملة أو تطور خطير في تلك الآداب ، ولم يؤثر الأدب الإنجليزي فيها بعض ما أثرت هي فيه ، فهو قد جاء متأخراً عنها قليلاً ولحق بها فتشابه الجميع اليوم رقباً ، فهي في غنى عن الأخذ عنه ، وهو لا يفاجئها بمناصر ليست فيها ، وهو وهي سواء في الأخذ من الأدب اليوناني والبناء على أساسه واعتناق مبادئه التي دان بها في تصور الحياة وتحليل النفوس وعبادة الجمال

فالأدب الأوربية اليوم ، بما فيها الأدب الإنجليزي ، فرسا حلبة واحدة ، متشابهة في النشأة والتاريخ والتهج ، وهي وإن كانت على اتصال وامتزاج دائنين ، ان ينتظر أن يكون تأثير واحد منها في غيره تأثيراً بعيد المدى شاملاً عامراً ، كما كان تأثير الأدب اليوناني في الأدب الروماني ، أو تأثير الأدب العربي في الأدب الفارسي ، فيمثل هذا التأثير الشامل لا يكون إلا بين أدبين قد انفردت بينهما مسافة الخلف ، وضرب حجاب العزلة بينهما دهرأً ، كما هو الشأن اليوم بين الآداب الغربية في مجموعها - ومن بينها الأدب الإنجليزي - والآداب الشرقية في مجموعها - ومن بينها الأدب العربي - فقد كان